



عام من المهل... عام من الكذب والنفاق والرياء الدبلوماسي، والتصحر السياسي... عام من المتاجرة بدماء الشعب السوري وقوت أطفاله، فهل يستمر مسلسل المهل حتى يقضي الأسد على آخر طفل ثائر في هذا الوطن المعطاء؟

حتى استراتيجيات العقل الباطن (الذى لا يميز عادة بين الصورة الحقيقية والصورة المزيفة) لم تعد تستبعد أن يحل علينا عام 2050م بنهاً عاجل يمر عبر الشريط الإخباري يفيد أن العالم يمنح الأسد مهلة جديدة لوقف العنف ضد من بقي حياً من الأبراء.... لا فلسفة ديكارت ونيتشه، ولا حذقة علماء الكلام ولا حتى تأملات بوذا وتحليلات فرويد استطاعت أن تفسر لي ظاهرة المهل المستشرية في العالم هذه الأيام...

بعد عام أو يزيد لم أعد أفهم ماذا ينتظر العالم ليدين جرائم الأسد ضد شعبه ويضع حدأً نهائياً لها ولو بقوة القنابل الذرية؟ هل هي سحبة يانصيب أبو صياغ (أمهل واربع)؟ أم دعاية ترويجية مدبلجة (اشتري مهلتين واحصل على الثالثة مجاناً)؟ أم لعلها آخر تقليعات آبل في ساح التكنولوجية المعاصرة (آي - مهله)؟ ماذا استفاد الشعب المباد من مسلسل المهل؛ وهل أثرت المهل عن وقف القتل والعنف والنبح والتخريب الممنهج؛ هل أقنعت الأسد أن يكتف جام غضبه عن شعبه الذي يطالبه بالرحيل رفقة بدموع الأطفال وأنات المعذبين ورفقاً بالقوارير؛ هل ينتظر كوفي عنان (آخر الماهلين وليس أخيرهم) أن يطلع علينا الملك البريء بشار الأسد عبر قنوات الإعلام ليعلن التناحي ويعذر عن جرائمه ويسكب دموع التوبة فوق التراب الذي تروى وتتشبع بدماء الأبراء؛ وهل يتوقع كوفي عنان أن يمنح الشعب المنكوب حتى العظام صكوك الغفران للأسد ويصرخ بالأرامل والأيتام والمعاقين والمنكوبين: (من كان منكم بلا خطيئة فليترجمها بحجر)؛ هذا القاتل المجرم بالفطرة الذي لم تحرك ساكناً فيه دموع الأطفال وجثثهم المنبوحة وبقي منعزلاً عنها في عالمه الافتراضي يلعب ألعاب هاري بوتر ويتبادل رسائل العشق الحرام مع هديله، ويمارس البغاء السياسي مع شهزاده ولوناه... هل ننتظر منه أن يقول كما قال بن غوريون: "أذهب وفي ذاكرتي كل ذلك الدم" ، الذي أشفع على الفلسطينيين من مجازر إسرائيل بحقهم؛ أو كما قال عزرا وايزمان: "تلك الأحذية التي تقود أرواحنا" ، حين تحدث عن جرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني متألماً؛ حتى الحجارة تبكي لكن الأسد جُبل من معدن رخيم لا يرقى حتى لمستوى الحجارة.

لعل أعظم إنجازات الثورة السورية (والتي هي أعظم إنجازات العصر) أنها أسقطت القناع عن الوجه القبيح للعالم، وأبرزت هشاشة الأخلاق التي تعاني منها منظومة حقوق الإنسان العالمية، المصابة بيرقان المصالح وتفصيل القرارات على مقاس

المصالح لا على مقاس الأخلاق. فهل هناك حصيف يدرك أنَّ الأخلاق لا يمكن أن تتقىً كلَّ هذا الدمار والتعذيب السادس والقتل حباً بالقتل؟ إنَّ ما يحدث في سوريا اليوم جرائم لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، قانونها العام (القتل للقتل)، إذ لا يعرف القاتل لماذا قتل، ولا المقتول فيما قُتل. فمتى تتفتح البصائر يا أولي الألباب؟ أم أنَّ على قلوب أقفالها؟ سوريا اليوم أمة محطمة القلب تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولم يعد ممكناً إعادة تشكيل الشظايا على المدى القريب.

هل هذا ما يريد مجموعة أعداء سوريا؟ أن تبعثر أسلوؤها على رؤوس الأشهاد فلا يقوى على جمعها سوى بارئها القادر على خلق شيء من لا شيء؟ صدق الماغوط حين قال: "أصبح لزاماً علينا أن نبيع البكاء في سلال على أرصفة القوارب"، لأنَّ حجم الكارثة يوازي حجم الزلزال والبراكين، ويقودونا شيئاً أم شيئاً إلى الذوبان في عمق الألم. لكن ما يذهل الألباب أنَّ الشعب ما يزال صابراً على البلوى، وليس بكلم إلا حين يتسم الشهيد، حاملاً تأشيرة دخول مجانية لجنان الخلد – إن شاء الله –، وجواز سفر سُطرت حروفه بشقائق النعمان، ويثق ثقة كاملة أنَّ على كافة التراب السوري يمكن أن يضطرب كلَّ شيء إلا دقات قلب العاشق وفي انتظام نبضه يكمن سرُّ الشهادة ومفتاح النصر.

سنة طويلة مرت وكأنَّها الدهر على أحفادبني أمية لم تثنهم عن مقارعة الظلم، فقد ركبوا موجة اللاعودة، وأحرقوا وراءهم كلَّ المراكب أسوة بجدهم طارق بن زياد؛ فإذا فتح من الله ونصر مبين، وإنما موت مشرف يحلق بهم في فضاءات العزّ والكبراء، يكون القاسم المشترك بين المستحيل والمستحيل، ومحال أن ينتهي الليلون يا شاعر العشق الدمشقي. مهما تكالبت الأمم علينا واجتمعت على موتنا كما تجتمع الأكلة على قصعتها، لن ندخل الردهة الصهيونية تحت عباءة آريل شارون، ولن نركع على اعتاب البيت الأبيض تحت أخمص الرجل الأسود، ولن تكون كبش الفداء لعيده النيروز الفارسي، ولا كعكة العيد الروسي. ثمة انفجار قادم، قد يكون بعيداً لكنه آتٍ لا محالة...

المصادر: